

## البئر الأولى وأدب جبرا ابراهيم جبرا

روز شوملي مصلح

تعرفت على جبرا ابراهيم جبرا كأديب في العام ١٩٧٨ من خلال رواية البحث عن وليد مسعود. كنت في ذلك الوقت مهووسة قراءة، وكنت من وقت لوقت أمر على مكتبة الفارابي وأنا في طريقي للجامعة اسأل صاحب المكتبة عن جديده. في ذلك اليوم، ناولني صاحب المكتبة كتاباً وهو يقول "سيعجبك جداً". سألت: من الكاتب؟ قال: "هو عراقي واسمه جبرا ابراهيم جبرا. أخذت الكتاب، وقرأته في نفس الليلة. وجدت نفسي أعود إلى فلسطين، وبالتحديد إلى منطقة بيت لحم والقدس. رأيت الحواكير والمُعْر، والزهور والزيتون، ورأيت الناس كأنني استعدت طفولتي. وما لم أفهمه، هو كيف لكاتب عراقي، أن يكتب بمثل هذه الحميمية وبالتفصيل، عن بلدي. إلى أن جاء أبي بعد نحو عام لزيارتي في بيروت، سألته: هل سمعت عن كاتب عراقي اسمه جبرا ابراهيم جبرا؟ ضحك أبي قائلاً: نعم سمعت، وهو ليس عراقياً. هو فلسطيني، وسرياني من بيت لحم. وبالمناسبة كان معروفاً بشطارته". عندها لم أتمالك نفسي فقلت: أنا قلت إن من يكتب بكل هذا الحب عن بيت لحم وقراها، لا يمكن الا أن يكون تلحمياً.

هو مكان طفولتي ما شدي لجبرا ابراهيم جبرا في البداية. المكان الذي حفر بصماته في الذاكرة كدليل على الطريق. وكما يقول وديع عساف في رواية السفينة لجبرا ابراهيم جبرا، "طفولتك ترافقك، لكنها ما عادت جزءاً منك"<sup>١</sup>.

يقول جبرا ابراهيم جبرا في مقدمة البئر الأولى أن مرحلة الطفولة هي أصل الكينونة، وهو بذلك يوافق ووردزورث أن الطفل هو والد الرجل. وينتقي جبرا أماكن، وأحداثاً، وشخصيات معينة

تركت بصماتها عليه، وشكلت قيمه ومساره المستقبلي، كفنان وروائي أو كشاعر وناقد. والجميل، أن مفاهيم جبرا ومعارفه الفنية التي بدأت بالتشكل في مرحلة الطفولة ( أي بئرہ الأولى) وظفها بشكل رائع في رواياته وبشكل خاص في رواية ( البحث عن وليد مسعود) ورواية (السفينة) وفي مجموعته القصصية عرق وبدايات من حرف اليباء.

الأسرة: ولنبدأ من الأسرة التي رافقت جبرا في مرحلة الطفولة الأولى. فقد توفرت لجبرا خبرات كثيرة، تفاعلت معاً لتصلق حواسه، وتوسع مداركه، تفاعل معها بما تحمل من قيم جسديتها قصص أبيه وأفكار أخيه الأكبر يوسف. "عفارم" هي الكلمة السحرية التي شجعت جبرا وخاصة حين تخرج من فم الجدة. أما الأم فهي التي كانت تتدبر المواقف الصعبة، وتؤمن استمرار العائلة من خلال إدارتها للأسرة والمنزل والاهتمام بالدواجن والخنازير والزراعة، إضافة إلى الاهتمام بأفراد الأسرة في حال المرض. لكن الأهم من كل ذلك هي شخصيتها - جرأة، صراحة، وقدرة على التعامل مع الظروف الصعبة واتخاذ قرارات قد تبدو مجحفة بحق أحد أفراد الأسرة، لكنها ضرورية من أجل استمرار العائلة ككل.

جبرا يستمع إلى قصص والده، فتتشكل لديه مفاهيم الخير والعدالة الإجتماعية والخير والشر. ويصبح أبوه نموذج الصدق والقناعة وعمل الخير وحب الآخرين تماما مثل شخصية الناسك وإبراهيم صانع الطواحين بطلي قصته الأثيرة، تلك القصة التي كان يكررها والد جبرا والذي يحمل بطلها اسم أبيه، إبراهيم. وكما كان إبراهيم صانع الطواحين بطل القصة، يصبح الأب نفسه بطل رواية يكتبها جبرا وهو في الحادية عشر من العمر، متأثراً بقصة إبراهيم، فتأتي هذه الرواية تعبيراً عن صراع الخير والشر.

وربما كان أهم دور للأب هو ذلك الموقف الذي وقفه عندما قرر جبرا أن يترك المدرسة. قال أبوه بانفعال شديد، "ما دام في عرق ينبض، وما دام في صدري نفس، لن أسمح لك بأن تترك المدرسة." وأردف أبوه، "لماذا؟ لأن الكلمة مقدسة، أي نعم. الكلمة من عند الله. بل الكلمة هي الله، كما جاء في الإنجيل. والكلمة هي الكتاب. ٢"

وفي موقف آخر، عندما طرد المدير جبرا من المدرسة الرشيدية، لأنه لم يبق في مقعده إلى أن ينتهي زملاؤه من الامتحان، حمل الأب عصاه وخرج على الفور قاصداً الراهب بطرس صومي، وكان معروفاً بشجاعته الأدبية وقدرته على الإقناع لمرافقته عند المدير من أجل أن يعيد جبرا إلى المدرسة. وعندما يذكر المدير أنه أعاد جبرا إلى البيت، يقول الأب، "كأنك قتلته، وقتلتني يا حضرة المدير. ٣" ويُسجل ليوسف الأخ الأكبر نفس الموقف حين أصر على جبرا أن يستمر في المدرسة، وأعطى نفسه مثلاً

لما يمكن أن يكون عليه جبرا لو ترك المدرسة. لكن الدور الأهم الذي لعبه يوسف كان في وضع الكتب بين يدي جبرا. وهو بذلك وضعه على سكة الإبداع والقراءة التي هي ضرورية من أجل فعل الكتابة. كان جبرا لا يكتفي بقراءة القصص، خاصة حكايات ألف ليلة وليلة، بل كان يرويها لأصدقائه، وكان يضيف إليها ما تجود به قريحته. وإذا كانت المعرفة سلطة، فإن جبرا أخذ سلطته على أترابه من هذه المعرفة التي تتجسد في القصص والحكايات والتي لم تتوفر لمعظم أترابه في منطقة بيت لحم. وإذا كانت نظرية تعديل السلوك صادقة من حيث أن السلوك محكوم بنتائجه، فانه من الممكن أن يكون الرضا والإعزاز الذي كان يشعر به جبرا، ولّد عنده تلك الرغبة لمزيد من القراءة، ولمزيد من الإضافات المثيرة للحكايات، كي تصبح أكثر تشويقاً ومتعة، والتي هي مقدمة طبيعية نحو عالم الإبداع.

القصص: تظل بصمات ألف ليلة وليلة تتدخل في قصص جبرا. يذكر جبرا في البئر الأولى كيف تأثر بألف ليلة وليلة التي قرأها في عمر مبكر، وكيف كتب عن رجل يحلم بفتاة جميلة، في رسمها، إلى أن يلتقي بها وإذا بها مثل الصورة ٤. وفي المجموعة القصصية "عرق وبدايات من حرف الباء" قصة مشابهة، هي "ملتقى الأحلام" والتي تتحدث عن كاتب رسام يرسم دائماً صورة امرأة، إلى أن يلتقي مرة بفتاة تكون مثل الصورة تماماً ٥.

القصص الدينية تركت بصماتها على مخيلة جبرا الطفل. الكلمات تتحول إلى صور ضمن مكان وزمان. جبرا يتصور الله وهو يجبل الطين كما يجبله عمال البناء، ويبحث عن قابيل في وجوه الناس. وحين يتساءل جبرا عن معنى الخطيئة التي تعلّم عنها في دروس الدين، يعطي والد جبرا لمفهوم الخطيئة المجرد بعداً سلوكياً يمكن فهمه، فيقول "الخطيئة يا بني هي السرقة، والكذب، لا تسرق، ولا تكذب... لا تكثر من القسم باسمه المبارك. ثم، لا تشتم.. الشتيمة في نظر الله خطيئة." يسمع جبرا تفسير أبيه ويعلق قائلاً، "صعبة كانت وصايا أبي، ولكنني لم أنسها قط. ٦" وهنا يأخذ جبرا من الدين العلاقة بالآخر. والكذب في العلاقات هو المحور الذي تدور حوله رواية السفينة، حيث الصادق الوحيد هو وديع عساف الفلسطيني.

المدرسة: أيضاً كان لها أثرها في تنمية خبرات جبرا. فقد كان يصغي للكلمات الألعاب والقصائد، ويحلق في صورها، وينطلق به الخيال إلى ما بعد الصور وما قبلها، لتؤسس عنده بدايات الحكايات. ففي لعبة "يا عونياً" يتخيل جبرا عونياً "بدوية سمراء سوداء العينين، خميرية الخدين، ويسترسل في وصف وجهها وجدائلها وانحناءاتها وهي تسقي جملها من راحتي كفيها. ٧"

ولبعض المعلمين دور هام في تطوير قدرة جبرا اللغوية مثل الأستاذ فهيم جبور الذي ربط درس القواعد بالشعر. وتعلم جبرا في سنتين من فهيم جبور تحدي اللغة، والبحث عن العلاقات بين الكلمات. وهذا

حالاً جبراً في كل المواضيع الدراسية، كما تفوق في المدرسة الرشيدية، وهو الغريب الذي يجد نفسه موضوع منافسة، أما هو، فله مثله، وقيمه، مما يجعله لا ينافس أحداً سوى نفسه، وفي ذلك يقول: "أنا لم أنافس أحداً قط. أقحمت إقحاما في حشد من الغرباء كنت الأول بينهم. ٨" وهذا بالضبط ما يقوله وليد مسعود، ووديع عساف الفلسطينيان المتواجدان في مجتمع غير فلسطيني، حيث ينقسم كل منهما لجزء حاضر وجزء بعيد، الأمر الذي يضيف على الشخصية غموضاً لافتاً لتصبح دائماً مركز الاهتمام.

الموسيقى والرسم: بالرغم من أن موضوعي متعلق بجبراً كأديب، إلا أن اهتمامه بالموسيقى والرسم في البئر الأولى ظهر بوضوح في رواياته ومجموعته القصصية "عرق وبدايات من حرف الياء". ففي قصة الغرامافون، تصوير للورشة التي عمل فيها جبراً عندما كان صغيراً مع السباك بشار، مع فارق أن جبراً في القصة اسمه يعقوب، أما السباك بشار فقد أطلق عليه جبراً اسم حنا.

جبراً أذكي ملكة التعبير بالكلمات عن الأشياء المجردة كالرسم والموسيقى. كان يطيل التأمل في هياكل الكنائس المنقوشة بالزخارف المذهبة ولوحاتها المعلقة على الجدران. وعلاقة وديع عساف مع الفتى فايز في رواية السفينة تبدأ من اهتمام فايز بالرسم والموسيقى. إن قدرة جبراً على استشعار الكلمة المرئية أغنت تجربته الجمالية ليس فقط في مجال الرواية والقصة، بل أيضاً في مجال النقد الأدبي والفني فيما بعد، ونجده من خلال شخصية وديع عساف ووليد مسعود يعبر عن رأي ناقد في الموسيقى والرسم.

المكان: لكن أهم ما حمله جبراً من بئرته الأولى هو الإطار الذي احتوى كل ما حمل في الذاكرة. المكان- البيوت التي سكنها في بيت لحم وجورة العناب في القدس، والطبيعة في تغيرها، وعلاقتها بالأعياد والمواسم. ٩" ولم تخل أي من رواياته من التعرّيج عليها. وكما ورد على لسان عصام السلطان في السفينة، تلك الطبيعة ما يجعل الفلسطيني شاعراً ١٠.

ذاكرة جبراً تحمل منطقة بيت لحم بعاداتها وطقوسها، بطبها الشعبي وبالعرافين، بفلاحيتها، وببدوها وبسكان المدينة. بمعلميها، بحرفييها من صدّافين وسباكين، وحجارين، بتعددتها، بناسها العاديين الذين يهتمون بالصلاة كما يهتمون بالسياسة، بأحداثها الكبيرة وأحداثها الصغيرة. وتجد تأثير هذه الحياة مجسداً في أكثر من قصة أو رواية.

وعلى سبيل المثال، في قصة "المغنون في الظلال"، ١١ وهي واحدة من المجموعة القصصية "عرق وبدايات من حرف الياء"، واضحة بمشهدها الطبيعي والاجتماعي، بعاداتها وتقاليدها. الدلعونة، صوت العود، والشمس التي تتراقص على أشجار الزيتون التي تدخل عميقاً في الزمن.

وفي قصة "الشجار" من نفس المجموعة، ينقل جبراً صورة للحارات في مدينة بيت لحم، وجورة

العناب في القدس، حيث يضطر الناس لفتح نوافذهم كي يدخل منها الضوء، لكن ذلك يعني بالضرورة أن تنتفي الخصوصية لكل جار. وفي هذه القصة، ندرك أن الطفل الراوي هو جبرا، وتنعكس علاقة جبرا بأمه على علاقة البطل بأمه. والزقاق الذي يجري فيه الشجار شبيه باكتناظ بعض البيوت أو الحارات التي سكنها جبرا وهو طفل، أكان ذلك في بيت لحم أو في القدس. يهرب الطفل إلى الحواكير ثم إلى الوادي، يقفز مع صديقه من صخرة إلى صخرة، ثم يرميان الحجارة في الماء كي يريا الرذاذ. تماماً كما كان جبرا يفعل حينما ينفرد بالطبيعة ويتوحد معها عبر انفراده بشجرة التوت والخروب. هناك يقرأ الشعر ويغني. في الطبيعة يتجدد.

طفولة جبرا حملت أيضاً لحظات مرة. وكما انتقت ذاكرة جبرا أحداثاً جميلة، حملت أيضاً خبرات قاسية تمر في أكثر من مكان في رواياته أو في مجموعته القصصية. قصة عطشه وجوعه حد الموت، في الصعود إلى تل خريطون أو الضياع في شوارع القدس القديمة، والنجاة بعد فقدان الأمل في النجاة، كانت أهم درس تعلمه جبرا. هناك أمل. والعنقاء تقوم من بين الرماد. هذه الفكرة رافقته طوال حياته، كما أشار إلى ذلك أكثر من مرة. ١٢ في البئر الأولى وفي شارع الأميرات. وربما لذة الرعب تكمن في المغامرة التي تظل تعطي الأمل بالنجاة.

كما تحمل الذاكرة جريمة القتل التي ارتكبها ميكيل العائد من التشيلي، والتي كانت أول قتل يشعر به جبرا حيث شاهد بركة الدم الداكنة والبلاط والحائط الملطخين دماً والتي تشير الى انتفاضات الطعين العنيفة. وهذه الجريمة تتكرر في أكثر من مكان في رواياته. مثلاً، في قصة "الشجار" يصور جبرا علاقة أمه بأبيه، عبر رسمه لحياة أسرة مشابهة، يأتي الأب في آخر النهار متعباً، فتغسل له زوجته رجليه في الطشت، بينما يجلس الطفل في حجر أبيه. وما أن يبدأ الوالد في قص حكاية للطفل، يُسمع صراخ يجعل الأب يتوقف. وهنا ينقبض صدر الطفل، ١٣ وكأن جبرا في هذه القصة، يستذكر حادثة القتل التي قام بها مايكل العائد من الأرجنتين، والتي وصفها في البئر الأولى، فتأتي مشاعر الطفل في القصة مماثلة لمشاعر الطفل جبرا كما عبر عنها في البئر الأولى عندما حدثت جريمة القتل.

الذاكرة تحمل أيضاً الحوادث التي تتعرض لها البلاد وتترك الكثير من الأثر كان إيجابياً أم سلبياً. زلزال ١٩٢٧ ترك دماراً لا يوصف على المنطقة ومنها بيت لحم. كان عمر جبرا في ذلك الوقت سبع سنوات. ١٤ ولم تستطع السنون محو لحظات الرعب التي عاشها الطفل، وها هو يتذكر آثار هذا الزلزال في رواية "البحث عن وليد مسعود". ويذكر جبرا كيف انطلق مع الصبية مرعوبين إلى الخارج، وكيف رأى "الحجارة تتساقط من أعلى المبنى القديم، وتتكوم في ركام أبيض مريع". لكن تجربة جبرا الطفل في الضياع والعطش والجوع حد الموت، ونتاجه، جعلت للموت قيامة، وللدمار التجدد. هي فكرة الغول والعنقاء. بعد كل محنة هناك بداية فنية، وتجدد على صعيد جبرا نفسه،

وعلى سعيد الأمة كما جاء في كتاب شارع الأميرات ١٥.

وفي الختام، يمكن القول أن بيت لحم التي تضم في حناياها مهد المسح تجعل أبناءها يشعرون بالامتياز. إما بسبب إيمانهم بذلك، أو بسبب إيمان الآخرين به. وفي قصة "سيدة البحيرات" التي وردت في كتاب "شارع الأميرات"، ١٦ وهو الجزء الثاني من السيرة الذاتية لجبرا، يلتقي جبرا بسيدة ذات رداء أبيض تتعامل معه بقدسية عالية، وكأنه رؤيا لكونه من بلد السيد المسيح ولأنه يعرف لغته. وربما تكون السيدة نفسها هي رؤيا جبرا نفسه يعبر فيها عن امتيازاه واعتزازه بفلسطينيته وبكونه من بلد المسيح، ويتحدث بلغة قريبة من اللغة التي تحدث بها المسيح منذ نحو ألفي عام.

## الهوامش:

- ١- السفينة، ص. ١٦.
- ٢- البئر الأولى، ص. ١٧٦- ١٧٧.
- ٣- المصدر نفسه، ص ٢٦٤.
- ٤- المصدر نفسه، ص ١٩١.
- ٥- عرق وبدايات من حرف الياء ص ص ٦٢-٨٧.
- ٦- البئر الأولى ص ص ٨٩ - ٩٠.
- ٧- المصدر نفسه، ص ٦٢
- ٨- المصدر نفسه، ص ١٧٣
- ٩- المصدر نفسه، ص ٧٥
- ١٠- السفينة، ص ١٧
- ١١- عرق وبدايات من حرف الياء، ص ٣٩-٤٦
- ١٢- شارع الأميرات، ص ٢٠٢.
- ١٣- عرق وبدايات من حرف الياء، ص ص ١١٠- ١١٤.
- ١٤- البئر الأولى، ص ١١٧.
- ١٥- شارع الأميرات، ص ٢٠٣.
- ١٦- المصدر نفسه، ص ص ٤١-٥٢.